أهل الذمة

في العصر الفاطمي

من المبادىء التي اتبعها المعز لدين الله الفاطمي منذ فتحه مصر حرية العقيدة إذ جعلها حقًا للمصريين جميعاً فكان لليهود دينهم وللنصارى دينهم ، وكان الناس في عهده وفي عهد من أتى بعده من الخلفاء الفاطميين، متساوين تربطهم رابطة انسانية واحدة ، وتظلهم راية واحدة هي راية الوطن . ولا غرو فالدين الاسلامي ترك للذميين الحرية التامة في اتباع احكام دينهم وبذلك قضى على معظم الخلافات التي كثيراً ما فرّقت بين المسلمين وأهل الذمة

والخليفة الفاطمي انما يتبع في هذه الحرية سنة المسلمين منذ فتح عمرو بن العاص مصر ايام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ويطبق الشريعة الغراء التي تقرّر المساواة التامة بين المسلمين وذوي العهد في كل شيء دنيوي والتي تجعل الود موصولاً بين أتباع موسى وعيسى ومحمد . فقد قال تعالى « لكم دينكم ولي دين »[1]. وقال ايضاً « لا أكراه في الدين »[2]. وقال تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[3] وغيرها من الآيات الكريمة ، التي تدل دلالة واضحة على تسامح الدين الاسلامي مع الذميين ، وان الله خلق الانسان حرًا مختاراً ان شاء آمن وان شاء كفر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[4] ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « من آذى يهوديًا او نصرانيًا كنت خصماً له يوم القيامة »[5] ويقول « استوصوا بالقبط خيراً ، فان لهم ذمّة ورحماً »[6]

---

(١) الآية ٦ من سورة الكافرين رقم ١٠٩ (٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة رقم ٢

(٣) الآية ٩٩ من سورة « يونس » رقم ١٠ (٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف رقم ١٨

(٥) السيوطي حسن المحاضرة ص ٦٧ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الثالث ص ١٠٧ نقلا عن البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ص ١٦٢

(٦) أما الذمة فلأن الرسول عليه السلام تسرى منهم جارية القبطية التي أهداها اليه المقوقس فولدت له ولده ابراهيم في ذي الحجة سنة ٨ هـ أما أختها « سيرين » فقد وهبها النبي عليه الصلاة والسلام الى « حسان ابن ثابت » . مات ابراهيم وعمره ١٦ شهراً ودفن بالبقيع . أما أرحم فلأن هاجر أم اسماعيل بن ابراهيم من القبط . ولقد اتبع الفاطميون سنة نبيهم فتزوج منلا للعزيز بالله بنصرانية وعين أخويها بطريركين لمكونين أحدهم باسكندرية والآخر ببيت المقدس . الكندي فضائل مصر المخطوط ورقة ٣ ويحيى بن سعيد الانطاكي التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٤٤ — ١٤٥ وابن الاثير أسد الغابة ج ١ ص ٣٨ — ٣٩

ويقول عليه الصلاة والسلام « وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم » ويرد على الذين قالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله بقوله « يحفظونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة » (١)

ونرى أن هذا الحديث موضوع وضعه الأقباط ، وهو يبين بكل جرأة الدور الذي يقوم به انكتاب النصارى في الدولة الاسلامية

ولقد أوجدت المعيشة المشتركة بين المسلمين وأهل الذمة منذ البداية نوعاً من التسامح ، وآثر أصحاب الأديان المختلفة أن يعيشوا متقاربين متفاهمين ، ولكن المعز لدين الله نبّاها هو وغيره من الخلفاء الفاطميين ، فكان أهل الذمة في زمنه أحراراً في تقاليدهم وعاداتهم لا يضيق عليهم إلاّ اذا دعت المصلحة العامة لهذا التضييق . فمثلاً أبطل المعز لدين الله مهرجان ليلة الغطاس إذ شاهد بنفسه مايحصل فيه ليلاً من الفاسد من قصره الذي كان يشرف على النيل إذ تجاهر الناس فيها بشرب الخمر وأفرطوا في اللهو والفساد . كذلك منع المعز لدين الله القبط من صب الماء على الناس في الطرقات يوم النوروز (أو النيروز) ، ومنع الناس من ايقاد النار في تلك الليلة لما يأتون من الافراطات . يؤيدنا في هذا الرأي ان هذا الخليفة كان يحتفل بمواسم النصارى فيضرب خمسمائة دينار ذهباً (عشرة آلاف خروبة) ، ويفرقها على جميع أرباب الرسوم يوم خميس العهد الذي يسميه العامة « خميس العدس » والذي فيه يتهادى النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، كما كان من رسوم الدولة ان تفرق المتاود التي بها السمك والزلابية والبوري في عيد الميلاد المسيحي على أرباب الدولة من اصحاب السيوف والأقلام ، كما كانت تفرق الدولة النارنج والليمون والقصب والسمك وغيرها برسوم مقررة لكل واحد من ارباب السيوف والأقلام في يوم الغطاس (١١ طرية) (٢)

إنهم جميعاً في الانسانية اخوان وأعوان . لذلك رأى الخليفة الفاطمي ، كما رأى المصريون من قبله ، ان العقيدة يجب أن تترك امرها لعلام الغيوب وحده ، لأن النبي عليه السلام يقول « أتقوا دعوة المظلوم وان كان كافراً فليس بينها وبين الله حجاب » ويقول ايضاً « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته او انتقصه او أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » (٣)

ومن الأمور التي انزعج لها المسلمون أيام الدولة الفاطمية كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، حتى كان النصارى واليهود هم الذين يحكمون المسلمين

(١) البرطلي حسن المحاضرة ص ٤ و ٩ (٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٤٦ والمقريزي الخطط ج ٢ ص ٣٩١—٣٩٢ وابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٦ و ٥٩ (٣) أبو يوسف الخراج ص ١٤٥

في بلاد الاسلام . مع إن الشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبصار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة ، ولكن هذه السياسة وان اختلفت ليناً وشدة ورأفة وعنفاً على توالي الايام ، فانها كانت أمن الذمة من الحصول على المناصب الهامة في الدولة ، فكان منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية وبذلك جمعوا ثروات طائلة وصبحوا ذوي سلطان وثروة . وتحدثنا المصادر التاريخية عن كثير من أهل الذمة تولوا أرفع المناصب في الدولة الفاطمية وعوملوا برفق وعناية من خلفائهم فتمكنوا من مرافق الدولة وعظم نفوذهم وسلطانهم فكثر لديهم المال . فمثلاً كان طبيب المعز لدين الله قبل ولايته للعهد « اسحق بن سليمان اليهودي » طبيب المنصور والد المعز ثم بعد موت والده اتخذ « موسى بن العازار » طبيباً له [1] . كذلك ستوزر المعز من اهل الذمة « ابا الفرج يعقوب بن كلس » [2] الذي كان يهودياً وأسلم فكان متصوفاً في الغالب ماهراً في الادارة ، وضع نظم الادارة الفاطمية بمصر وانتعشت البلاد في عهده وكان الرخاء وافراً في وادي النيل . ولما مرض ابن كلس مرض الموت ركب العزيز بالله اليه وعاده وقال له « وددت انك تبقى فأبتاعك بملكي ووفدي » ولما توفي سنة ٣٨٠ هـ حضر الخليفة جنازته وصلى عليه وألحده في قبره وكان دفنه في قبة بدار الخليفة كان قد بناها لنفسه [3] ولا ادل على ثروته من انها احتوت من الجواهر الثمينة

---

(١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٤٥ والقلقشندي صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٦ والمقريزي اتعاظ الحنفا ص ٥٧ Lane Poole a History of Egypt in the Middle Ages p. 120 (٢) —Margolouth Cairo, p. 41-42—Mann, The J ws, p. 17

كان أبو الفرج يعقوب بن كلس يوسف المنتب بابن كلس (٣١٨ — ٣٨٠ هـ / ٩٣٠ — ٩٩١ م) يهودياً من أهل بغداد فيه فطنة وذكاء خرج الى الشام بالرملة في شبابه واشتغل بها في التجارة وأتقنها دون عجز عن ادائها فهرب منها بعد مدة الى مصر فرأى منه كافور الاخشيدي فطنة سياسية ومعرفة بتصريف الشؤون فقال « لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً » فأسلم سنة ٣٥٠ وقيل سنة ٣٥٦ هـ على يد كافور ولما مات كافور قبض عليه الوزير « جعفر بن الفرات » وزجه في السجن وصادر أمواله لانه كان يحسده ويعاديه فما زال يسعى ويبذل الاموال حتى أفرج عنه وفر من مصر سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م الى المغرب . ولما دخل المعز الى فتح مصر بعد أن وصف له غناها واضطرب احوالها وضعفها . ولما دخل المعز مصر ليتملكها دخل معه وترقى ابن كلس حتى وصل عنده الى منصب الوساطة وأصبح حجة في العلوم الاسلامية بفضل ذكائه وانكبابه على العمل . ولقد ألف ابن كلس كتاباً في الفقه على مذهب الفاطميين وهو المعروف بالرسالة الوزيرية نسبة الى مؤلفها الوزير يجلس بنفسه في الناس عامتهم وخاصتهم لقراءتها وكان أول من تكلم في انخاذ الجامع الازهر معهداً للدراسة المنتظمة . ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤٠ و ج ٣ ص ٣٩١ — ٣٩٦ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٢٠ و ٢١ و ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ٩ ورقة ٤١٩ و ٤٢٠ وابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١ و ج ٤ ص ١٥٨ وابن ظاهر أخبار الدول المنتقطة ورقة ٤٧ — ٤٨ و ٥١ — ٥٢

(٣) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦

ما قدر قيمته مائة الف دينار ، وقيل ٤٠٠ الف دينار [١] . وكان اقطاعه من العزيز بالله الف دينار و[illegible] اربعة آلاف غلام من العبيد والمماليك [٢] ولما مات ابن كلس رد العزيز بالله النظر في [illegible] الى عيسى بن نسطورس المسيحي [٣] ثم رفعه الى منصب الرصافة .

وكان منشا بن ابراهيم القزاز اليهودي والياً على انحاء ايام الخليفة العزيز بالله ، وكان طبيب هذا الخليفة وشيب والده الحاكم بأمر الله ، ابو الفتح سهل بن مُنَشَّا النصراني المصري [illegible] مرض الحاكم ودواه ابن منشا اعطاه عشرة آلاف دينار [٤]

ورقي « محمد بن ابراهيم » النصراني الى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد ان كان كاتباً ولقب بالرئيس وخلع عليه الخلع وحُمل على بغلة وقيد بين يديه بغلة اخرى وحمل بين يديه ثلاثون ثوباً .

كذلك تقلد الوزارة « منصور بن عبدون » النصراني سنة ٤٠٠ هـ كما تقلدها زرعه ابن نسطورس المتوفى سنة ٤٠٣ هـ وهو اخو عيسى بن نسطورس السالف الذكر ايام الخليفة الحاكم بأمر الله .

وفي ايام الخليفة المستنصر تولى الوزارة « ابو سعد منصور بن ابي النجم حورس بن مكروا بن زنبور النصراني الذي كان نصرانيًا وأسلم ، كذلك تولى ابو سعد التستري وكان يهوديًا فأسلم لنظارة أم الخليفة المستنصر الخاصة .

وكان ابو نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله وقد امر هذا الخليفة ان يعمل لابي نجاح بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة له من الصوف الابيض المنسوج بالذهب ليلبسها ومن فوقها العظايم الديباج وسمح له ان يركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة وكان يشم ريحه من مسافة بعيدة لتطيبه بالمسك يوميًا [٥] ؟ كما تقلد الاحرم بن ابي زكريا امر الدواوين أيام الخليفة الحافظ كذلك عهد هذا الخليفة الى بهرام الارمني النصراني سنة ٥٢٩ هـ بالوزارة وعهد الى اخيه المعروف بالباسك بولاية قوص . ولما مات بهرام سنة ٥٣٥ هـ حزن الحافظ لدين الله عليه حزناً شديداً وأخرجه عند صلاة الظهر في تابوت

(١) ابن منجب الصيرفي الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ (٢) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٣ ص ٣٩٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ — ٤٢٠ و Lane Poole, A. History of Egypt. p. 119 (٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي ج ٢ ص ١١٦

(٤) ابن العبري مختصر تاريخ الدولة (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦ والاستاذ عنان الحاكم ص ٣٧ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٥ والدكتور حسن ابراهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢٠٥ نقلا عن يحيى بن سعيد ص ١٨٥ — ١٨٦ (٥) ابن طاهر أخبار الدول المنقطعة المخطوط ورقة ٥٩ — ٥٢ و٧٥ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٥٦ و ٧١ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ والعيني عقد الجمان المخطوط المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠

عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون بالبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر منهم احد من الاعيان . وخرج الخليفة راكباً بغلة خلفه والقسس يقرأون الانجيل ولقد بكى الخليفة بكاء شديداً عليه عندما وضع في قبره[1] ولا شك ان المسلمين كانوا يكرهون ان يكون احد من اهل الذمة في منصب رفيع كالوزارة ، لا سيما وان من رسوم هذا المنصب ان يصعد الوزير مع الامام المنبر في الاعياد ليزرّر عليه المَزَرّة (السنارة) الخاصة له هو الرعية ، وغير ذلك من الامور التي تتصل بعوائد المسلمين الدينية مما اضطر الخليفة ان يضع تقليداً جديداً ، يتعهد الى القاضي في القيام بمثل هذه المهام عندما يكون الوزير من اهل الذمة [2] غير ان اهل الذمة عندما ولاهم الخلفاء الفاطميون اكبر المناصب في الدولة أظهروا محاباة ظاهرة لبني ملتهم فعينوهم في المناصب الحكومية ومنعوا المسلمين اصحاب الاغلبية العظمى في البلاد من ان يستخدموا ، فكانوا بذلك الحاملين على بث شعور الكراهية والبغض بينهم وبين المسلمين فتذمر المسلمون وقاموا بالاحتجاج عند الخليفة بين الفينة والفينة فكان ذلك سبباً في اعتزالهم واقصائهم من مناصب النفوذ ، كذلك سخط المسلمون على أهل الذمة في العصر الفاطمي لأنهم تمكنوا من جمع الثروات ووقفوا قسماً كبيراً من أراضي مصر على الكنائس والاديرة ، ولأنهم تسلطوا على عقول الخلفاء .

فاذا قسا خليفة فاطمي على أحد من أهل الذمة فانما كان يقسو في اعتقادنا تحت ضغط الرأي العام الاسلامي ، الذي كثيراً ما آلمه محاباة نفر من أهل الذمة وايثاره بكل النفوذ والسلطان وحرمان المسلمين من حقهم الطبيعي في تقلد الوظائف العامة ومن هنا نشأ القبض على بعض أهل الذمة وحبسهم وعزلهم ومصادرة أموالهم وقتلهم أحياناً .

نحدّثنا المصادر التاريخية انه وقفت امرأة في طريق الخليفة العزيز بالله (وقيل صورة مصنوعة على هيئة امرأة) بقصة (شكاية) فيها « يا مولاي بالذي أعزّ النصارى بعيسى ابن اسطوس واليهود بمنشا بن ابراهيم القزاز وأذل المسلمين بك ، ألا نظرت في أمري »[3] لأن عيسى مال الى النصارى وقدم الاعمال والدواوين ومنع المسلمين منها وسلك مسلكاً

---

(١) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٨٤ وتذكرة ابن زيدة المفكرة في تاريخ الهجرة المخطوط ورقة ١٧٥ — ١٧٦ والعيني عقد الجمان المخطوط ورقة ٤١٩ — ٤٢١ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨ وانظر Lane-Poole, A. History of Egypt in the Middle Ages p.12

(٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٧٩ (٣) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٣١ وخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١١١ — ١١٢ والعيني عقد الجمان ورقة ٤٣١ — ٤٣٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

منشأ بالشام فرفع اليهود واستخدمهم وبذلك استولى اليهود والنصارى على الدولة واعتزوا بها وآذوا المسلمين

وسواء أصحت هذه الرواية ام كانت مختلقة لأنها رويت لأكثر من خليفة فنسبت الى العزيز بالله احياناً [١] والى الحاكم بأمر الله احياناً اخرى [٢] فهي لدينا ذات مغزى هي ان نفوذ أهل الذمة طغى واستعانتهم ببني جنسهم ازدادت حتى تكوّن في مصر رأي عام يقول بالحد من سلطانهم وعدم اصطناعهم لبني جنسهم

فبلاّ عيسى بن نسطورس حابى أهل ملته وعينهم في الوظائف الهامة بعد ان عزل الكتبة وجباة الضرائب من المسلمين . ولما عوتب في ذلك قال « إن شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة فمتى كان منكم الينا احسان حتى تطالبونا بمثله ان مانعناكم قاتلتمونا ، وان سالمناكم أهنتمونا إذا وجدنا لكم فرصة ، فاذا تتوقعون أن نصنع بكم » [٣] ؟

لذلك لما عاد ابن نسطورس الى منصبه اشترط عليه استخدام المسلمين [٤] أما منشا بن ابراهيم المقزّار فقد اتبع نفس سياسة ابن نسطورس ببلاد الشام بالنسبة لأهل ملته اليهود فملأ الوظائف بهم وخفّض الضرائب المفروضة عليهم [٥] أما أبو سعد التستري اليهودي فقد تعسف بالمسلمين وحابى أهل ملته حتى كان المسلمون يحلفون بهذه العبارة « وحق النعمة من بني اسرائيل » وهذا ما حدا بالشاعر أن يقول في هذا اليهودي :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلك [٦]

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ان هذا الشاعر يحتمل أن يكون الرضي بن البواب [٧] وهو شاعر معاصر .

وما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أن يقول :

تنصرْ فالتنصر دين حقّ عليه زماننا هذا يدلُّ

---

(١) ابن ظافر أخبار الدول المنتظمة المخطوط ورقة ٥٢ و ٥٣ (٢) الذهبي تاريخ الاسلام المخطوط جـ ٣ ورقة ٢٨٧ (٣) النويري نهاية الارب جـ ٢٦ ورقة ٥٠ (٤) النويري نهاية الارب جـ ٢٦ ورقة ٤٩
(٥) Mann, The jews in Egypt & Palestine under the Fatimid Caliphs pp. 19 — 20

(٦) ابن ميسر أخبار مصر جـ ٢ ص ١ و ٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٩ والسيوطي حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٦ (٧) الدكتور حسن ابراهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢١١

وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا ومعطّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبٌ وهذا عزيز ابن روح القدس فضل

أما ابو نجاح بن قنا النصراني الراهب فانه لم يبق أحد من المسلمين أيام الخليفة الآمر إلاّ ناله منه مكروه من ضرب أو نهب أموال (١).

ولما قرّب الخليفة الحافظ « الاحزم بن أبي زكريا » النصراني اليه وأولاه أمر الدواوين أعاد لكتاب النصارى تجبرهم وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسوّمة بالسروج المحلاة بالنجم الثقيلة وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الاحباس الدينية والأوقاف الشرعية واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات وفي ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى في الفروج وقالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرّاً وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأمور الدجال هذا زمانك ان عزمت على الخروج (٢)

وعند ما تولى بهرام الأرمني الوزارة سنة ٥٢٩ هـ أيام الخليفة الحافظ وكان بهرام نصرانيًّا فولى الارمن ومكنهم من إهانة المسلمين ، فلما اشتد ضرره بالمسلمين « جمعهم رضوان بن ولخش لمحاربته (٣).

كذلك أمر الخليفة الحافظ بكف أيدي النصارى عندما انتقم الكاتب النصراني من الموفق بن الخلال « ضامن الحدية » وجعله يدفع ظلماً خراج أرض الجسام مع انه ليس له أرض زراعية بالناحية (٤) ويقول أولياري O'Leary (٥) ان الفاطميين بالغوا في استخدام أهل الذمة في المناصب المدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل.

ولا غرو فقد اشتهر أهل الذمة ولا سيما الأقباط بدرايتهم في الأعمال الكتابية والحسابية فكانوا يستخدمون في فروع الادارات المختلفة واحتكروا الوظائف العالية في الدواوين الفاطمية لمهارتهم في الحساب حتى قال ابن الحاج (٦)

لعن النصارى واليهود فانهم بلغوا بمكرهم بنا الآمال
خرجوا اطباء وحسابًا لكي يتقسموا الأرواح والأموال

ونرى أن الحركات التي يقصد بها مقاومة أهل الذمة في العصر الفاطمي كانت موجهة

(١) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ (٢) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٣٥٠ (٣) العيني عقد الجمان المجلد الأول ج ١٨ ورقة ٩٢ وعلي مبارك باشا الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٧ (٤) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٣٤٩
(٥) O'Leary de Lacy, a short History of the Fatimid Khalifate p. 144
(٦) ابن الحاج المدخل ج ٤ ص ١١٥

إلى محاربة تسلطهم على المسلمين ، إذ إن سيطرة الذمي على المسلم أمر غير مألوف للمسلمين وكان يحدث من ذلك الحين من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة نتيجة تجبر المتصرفين منهم وايذائهم للمسلمين . وقد ما دعى الخليفة الفاطمي أيضاً إن يمنعهم من الاحتفال ببعض أعيادهم وبتنفيذ الأوامر التي تقضي بشد الزُّنار ولبس العيار وان لا يظهر يهودي بغير غيار [1] وكما لبس اليهود البراطيل خطرية لبس النصارى البرانس فتعقبهم الجمهور وآذاهم وأغفل العهد أو الميثاق الذي أعطى لهم من قديم الزمن فاتخذ الفرقاء سيء معاملتهم للمسلمين ذريعة لنهبهم وسلبهم ولقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ بهدم كنائسهم بالديار المصرية [2] فهدمت عدة كنائس وأديرة .

كما تحرش المسلمون في الطرقات بكل من يُزى من أهل الذمة بغير الزي الذي رسم له أن يظهر به . وهذا التصور العدائي . في نفوس المسلمين من إيثار أهل الذمة عليهم كان يزيد ويعظم كلما ولي رجل من أهل الذمة منصباً له جاه وسلطان . ومع ذلك فقد تمتع اليهود والنصارى [3] بصفة عامة بحريتهم الدينية في أغلب العصر الفاطمي وشجع الخلفاء اقامة الكنائس والبيع والأديار [4]

لقد لقي أهل الذمة من الخلفاء الفاطميين كل مودة وعطف ورعاية في الحياة وبعد الموت ، وكما أستعين بأهل الذمة في الدواوين كذلك أستعين بهم في الأعمال الأخرى فقلما كان منهم أطباء الخليفة وكان لهم منزلة سامية عنده

---

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا ص ٨٧ في سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بأمر الله مثلا أن تعمل في أعناق النصارى الصلبان بحيث تكون ظاهرة على صدورهم وأمرهم الحاكم بأمر الله لليهود بغرة زرقاء ليكونوا ولا يخالطوا المسلمين

وفي سنة ٤٨٤ هـ لما استطال أهل الذمة على المسلمين ألزمهم الخليفة المستنصر بالله العبور (علامة أهل الذمة) والزنانير وتعليق الدرهم الرصاص في أعناقهم مكتوب عليها ذمي وفي أعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها وأن يلبسن الخفاف برداً أسود ومنديلاً أحمر وخلخالا في أرجلهن فذلوا وقهروا . الذهبي تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٥٣ و ٢٧٢ وابن المحسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ — ١٧٩ وج ٥ ص ١٣١ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٥١ — ٥٣ وذخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١٦

Mann, The jews in Egypt p. 33 & Betler, the Arab conquest of Egypt p. 448

(٢) المقريزي خطط لابن ج ٢ ورقة ٥٧ (٣) زاد ملاط الخليفة العزيز بالله في إكرام النصارى وكان للخليفة أصدقاء منهم Lane Poole, the Story of Cairo p. 121

وانظر Lane Poole, A history of Egypt in the Middle Ages p. 169

(٤) الاستاذ عنان الحاكم بأمر الله والحلاعن أبي صالح الارمني ص ١٣٩ و ١٤١ ب

Arnold, the Preaching of Islam chapter 3 & Lane Poole, the Story of Cairo p. 121

نقل الدم لشفاء بعض الأمراض

صح لرجال الطب في العهد الاخير ان نقل الدم يكون علاجاً جديداً لبعض الامراض النوعية ، أي التي يسببها جراثيم معروفة او فيروسات (مترشحات) غير مرئية بالمجاهر . فانه من المعروف ان البلازما وهي الجزء المائع من الدم ، قد انقذت بعض المرضى من الموت آلاماً من الجدري بأن حقنوهم من الصمغات المرضية المبتة . كذلك عرف ان هذه البلازما تحتوي على قدر من البروتينات المعقدة التركيب أحدها المعروف باسم (اما جلوبولين) Gamma globulin الذي يحتوي على الاجسام المضادة Antibsdeis التي تقي من الامراض او تقومها وقد تشفيها . وتوجد هذه الاجسام المضادة في الجلوبولين بنسبة ٢٥ ضعفاً أزيد من كثافة الدم وحقن الجلوبولين المحتوي على هذه الاجسام في أفراد يمرضون للاصابة بمرض اوهم مرضى به بالفعل ، اما ان يمنع الاصابة ، واما ان يحول سير المرض .

وتستعمل الآن مادة (اما جلوبولين) في اتقاء مرض الحصبة ، ومرض كذلك ذو أثر كبير في حالات التهاب الكبدي وهو مرض كثير الانتشار بين الجنود ، وربما كان ذا أثر في مقاومة أمراض أخرى فيروسية لم يعرف بعد شيء من طبائعها .

ولا يخامرنا شك في أنه ان صدر مرسوم بشأن أهل الذمة فإنما كان صدوره لاعادة المستبد منهم الى حظيرة القانون ولم يكن ابداً نتيجة تعصب ديني فأفرج مثلاً الخليفة العزيز بالله عن ابن نسطورس بتأثير ابنته « سيدة الملك » وزوجته النصرانية ، بعد إن اشترط [illegible] شنق العزيز بالله منشاً على أبواب دمشق ، كما ضرب الحاكم بأمر الله عنق ابن نسطورس لما استجار الناس به من سوء فعله (١)

كذلك لما نال الناس من أبي نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب من الجور والظلم واستباحه الأموال الشيء الكثير قتل ، ولما أساء بهرام النصراني السيرة سجنه الحافظ ثم أطلقه فترهب (٢)

وعلى ذلك لم يفرق الخليفة الفاطمي في دولته بين المسلم والنصراني واليهودي بل كان عهده عهد سلام وئام بين رعاياه جميعاً مسلمين وغير مسلمين وبذلك تمتع أهل الذمة براحة البال من حيث عقائدهم الدينية .

عطيه مصطفى مشرفة

(١) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٥٤ و ٦١ والعيني عقد الجمان المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

(٢) العيني المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٩١ والمجلد الثالث ج ١٩ ورقة ٤٢٢ و ٤٦٧ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦